تفسير سورة المجادلة من محاسن التأويل باختصار وتصرف

سميت بها، لأنها لما كانت لطلب الحق والصواب، أشبهت مجادلة الأنبياء والقرآن، ولذلك سمع الله لصاحبها. وهي مدنية، وآيها اثنتان وعشرون.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ١﴾

قالت عائشة رضي الله عنها: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات. لقد جاءت المجادلة الى النبيّ صلى الله عليه وسلم تكلمه، وأنا في ناحية البيت، ما أسمع ما تقول! فأنزل الله عزّ وجلّ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ... إلى آخر الآية.

والمراد من قوله: (**قَدْ سَمِعَ الله**) إلخ قبل قولها وأجابه.

وقوله: (**وَتَشْتَكِي إِلَى الله**) أي تشتكي المُجَادِلة ما لديها من الهم، بظهار زوجها منها، إلى الله، وتسأله الفرج.

ومعنى (**تحاوُرَكُما**) ترجيعكما الكلام في هذه النازلة، وذلك أن الظهار كان طلاق الرجل امرأته في الجاهلية، فإذا تكلم به لم يرجع إلى امرأته أبدا، وقد طمعت المشتكية أن يكون هذا الظهار طلاقاً، والنبيّ صلى الله عليه وسلم لم يبت لها فيه الأمر، حتى ينزل الوحي الذي يردّ التنازع إليه. ثم أنزل تعالى فيه قوله:

﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ٢﴾

(الَّذِينَ يُظاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسائِهِمْ) يعني قول الرجل لامرأته إذا غضب عليها أنت عليّ كظهر أمي، يعني: في حرمة الزواج. **(ما هُنَّ أُمَّهاتِهِمْ)** أي ما نساؤهم اللاتي ظاهروا منهن بأمهاتهم، أي ما يصرن بهذا القول كأمهاتهم في التحريم الأبدي.

(إِنْ أُمَّهاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ) أي فلا يشبههن الأزواج في الحرمة **(وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ الْقَوْلِ)** أي قولا تنكره العقلاء، وتتجافاه الكرماء. **(وَزُوراً)** أي باطلا لا حقيقة له، لأنه يتضمن إلحاقها بالأمّ المنافي لمقتضي الزوجية، **(وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ)** أي لذنوب عباده، إذا تابوا منها وأنابوا، فلا يعاقبهم عليها بعد التوبة.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٣ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ مِن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ فَإِطۡعَامُ سِتِّينَ مِسۡكِينٗاۚ ذَٰلِكَ لِتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٤﴾

(وَالَّذِينَ يُظاهِرُونَ مِنْ نِسائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِما قالُوا) أي يرجعون إلى لفظ الظهار ثانية، أو يعزمون على إرجاعهن زوجات لهم بعد تحريمهن، **(فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَماسَّا ذلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ واللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ شَهْرَيْنِ مُتَتابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ذلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكافِرِينَ عَذابٌ أَلِيمٌ)**

تنبيهات:

قال السيوطي: في هذه الآية حكم الظهار، وأنه من الكبائر، وأنه خاص بالزوجات، دون الأجنبيات، وأن فيه بالعود كفارة، وأنه يحرم الوطء قبلها، وأنها مرتبة: العتق، ثم صوم شهرين متتابعين، ثم إطعام ستين مسكينا.

واستدلّ بظاهر الآية من لم ير الظهار إلا في التشبيه بظهر الأمّ خاصّة دون سائر الأعضاء، ودون الاقتصار على قوله (كأمي)، وبالأم خاصة دون الجدّات وسائر المحارم من النسب أو الرضاع أو المصاهرة والأب والابن ونحو ذلك. ومن قال لا حكم لظهار الزوجة من زوجها، لأنه تعالى خص الظهار بالرجل.

وقوله تعالى: (**ذلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ**) أي الحكم بالكفارة العظمى المذكورة، تزجرون به.

وقوله تعالى: (**ذلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ**) أي ذلك البيان أو التعليم للأحكام لتصدّقوا بالله ورسوله في قبول شرائعه، والانتهاء عن قول الزور الجاهلي.

والمراد بقوله تعالى: (**وَلِلْكافِرِينَ عَذابٌ أَلِيمٌ**) الجاحدون لفرائضه وحدوده التي بيّنها. فالكفر على حقيقته، أو المتعدّون لها، وعنوان (الكفر) تغليظا لزجرهم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٥﴾ [المجادلة:٥]

(**إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ**) أي في مخالفة حدوده وفرائضه. وأصله من المحادّة، بمعنى المعاداة، لأن كلّا من المتعاديين في حدّ غير حد الآخر. (**كُبِتُوا**) أي أخزوا كما (**كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ**) يعني كفار الأمم الماضية. (**وَقَدْ أَنْزَلْنا آياتٍ بَيِّناتٍ**) أي

دلالات مفصّلات، وعلامات محكمات، تدلّ على حقائق حدود الله (**وَلِلْكافِرِينَ عَذابٌ مُهِينٌ**) يعني منكري تلك الآيات وجاحديها.

تنبيه:

فسّر بعضهم يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ بمعنى يضعون أو يختارون حدودا غير حدودهما، ففيه للذين وضعوا أمورا خلاف ما حدّه الشرع.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٦﴾

(**يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا أَحْصاهُ اللهُ**) أي أحاط به علما، ولم يذهب عنه شيء (**وَنَسُوهُ واللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**) أي رقيب، يعلمه ولا يغيب عنه. وتقديم الإخبار بسعةِ علمه سبحانه، تمهيد لما بعده من النهي عن النجوى بالإثم، تحذيرا وتنفيرا. وقد أكد ذلك بتفصيل علمه عناية بالمنهيّ عنه، والمُحَذَّرِ منه، في قوله تعالى: ﴿**أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ٧**﴾

فالنجوى معناها التحدث سرّا. ومناسبة ضم الخمسة للثلاثة، كون الخمسة أول مراتب ما فوقها في الوترية، فذكرا ليشار بهما للأقل والأكثر. على أنه عمم الحكم بعد ذلك بقوله: (**وَلا أَدْنى مِنْ ذلِكَ**) أي: كالاثنين وَلا أَكْثَرَ أي: كالستة وما فوقها إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ

أَيْنَ ما كانُوا أي: يعلم ما يكون بينهم في أي مكان حلّوا، لأن علمه بالأشياء ليس لقرب مكانيّ حتى يتفاوت باختلاف الأمكنة.

والمراد بهذه الآية معية علم الله تعالى، قال الإمام أحمد: افتتح الآية بالعلم، واختتمها بالعلم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾﴾ [المجادلة:٨]

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوى) قال مجاهد: هم اليهود **(ثُمَّ يَعُودُونَ لِما نُهُوا عَنْهُ وَيَتَناجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ)** أي: بما هو إثم وتعدّ على المؤمنين، وتواص بمخالفة النبيّ صلى الله عليه وسلم.

وذِكْرُهُ عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالة بين الخطابين المتوجهين إليه، لزيادة تشنيعهم، واستعظام معصيتهم.

(وَإِذا جاؤكَ حَيَّوْكَ بِما لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ) أي من قولهم: (السام عليك) ، أو مما نسخه الإسلام من تحايا الجاهلية، فإن الله تعالى يقول: (وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ) [الصافات: ١٨١]. **(وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ)** بِما نَقُولُ أي: من التناجي المذموم، أو من التحريف في التحية، استهزاء وسخرية. أي: هلّا يعجل عقوبتنا بذلك؟ لو كان محمد رسوله، **(حَسْبُهُمْ)** أي: يكفي قائلي ذلك في تعذيبهم **(جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَها فَبِئْسَ الْمَصِيرُ)** ثم نهى تعالى المؤمنين وحذّرهم أن يجترموا في النجوى ما اجترمه أولئك، بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا تَناجَيْتُمْ، فَلا تَتَناجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَناجَوْا بِالْبِرِّ) أي: بطاعة الله، وما يقربكم منه، **(وَالتَّقْوى)**أي: اجتناب ما يؤثم، **(وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)** أي: فيجزيكم بما اكتسبتم مما أحصاه عليكم.

ثم شجع تعالى المؤمنين في قلة المبالاة بمناجاة أعدائهم، وأنها لا تضرهم ما داموا مثابرين على وصاياه، متكلين عليه، بقوله **(إِنَّمَا النَّجْوى مِنَ الشَّيْطانِ)** أي: النجوى التي ذمها. فاللام للعهد. أي المزين لهذه النجوى بالشر، والحامل عليها الشيطانُ **(لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضارِّهِمْ)** أي الشيطان، أو التناجي المذكور **(شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ)** أي بمشيئته **(وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)** أي بالمضي في سبيله، والاستقامة على أمره، وانتظار النصر على أثره.

لطيفة:

إنما نهوا عن النحوي لأن التناجي اتصال واتحاد بين اثنين في أمر يختص بهما، لا يشاركهما فيه ثالث. وللنفوس عند الاجتماع والاتصال تعاضد وتظاهر، يتقوى ويتأيد بعضها، فإذا كانت شريرة يتناجون في الشر، ويُزاد فيهم الشر، ويقوى فيهم المعنى الذي يتناجون به بالاتصال والاجتماع، ولهذا ورد بعد النهى قوله: **(وَيَتَناجَوْنَ بِالْإِثْمِ)** الذي هو رذيلة القوى البهيمية **(وَالْعُدْوانِ)** الذي هو رذيلة القوى الغضبية، **(وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ)** التي هي رذيلة القوة النطقية، بالجهل وغلبة الشيطنة، ألا ترى كيف نهى المؤمنين بعد هذه الآية عن التناجي بهذه الرذائل المذكورة، وأمرهم بالتناجي بالخيرات،

ليتقووا بالهيئة الاجتماعية، ويزدادوا فيها فقال: (**وَتَناجَوْا بِالْبِرِّ**) أي: الفضائل التي هي أضداد تلك الرذائل، من الصالحات والحسنات المخصوصة بكل واحدة من القوى الثلاث، (**وَالتَّقْوى**) أي: الاجتناب عن أجناس الرذائل المذكورة، انتهى.

وقد وردت السنة بالنهي عن التناجي، حيث يكون في ذلك تأذّ على مؤمن، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كنتم ثلاثة، فلا يتناج اثنان دون الثالث إلا بإذنه، فإن ذلك يحزنه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١١ ﴾

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ**) تعليم منه تعالى للمؤمنين بالإحسان في أدب المجالس، وذلك بأن يفسح المرء لأخيه ويتنحّى توسعة له.

وارتباط هذه الآية بما قبلها ظاهر، فإنه لما نهى عن التناجي والإسرار، علم منه أنه لا بد من الجلوس مع الملأ، فذكر آدابه، ورتب على امتثالهم الأمر بالتفسح التفسح لهم فيما يحبون التفسح فيه من المكان والرزق وصدور المجالس من باب أن الجزاء من جنس العمل، كما جاء في الحديث الصحيح: من بنى لله مسجدا بنى الله له بيتا في الجنة. ومن يسّر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ولهذا أشباه كثيرة.

(**وَإِذا قِيلَ انْشُزُوا**) أي انهضوا للتوسعة، أو ارتفعوا في المجالس، أو انهضوا عن مجلس الرسول، إذا أمرتم بالنهوض عنه، (**فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا**

الْعِلْمَ دَرَجاتٍ) أي يرفع المؤمنين بامتثال أوامره، وأوامر رسوله، والعالمين بها، الجارين على موجبها بمقتضى علمهم، درجات دنيوية وأخروية.

تنبيهات:

الأول: في الآية استحباب في مجالس العلم والذكر، وكل مجلس طاعة.

الثاني: يفهم من الأمر بالتفسح النهي عن إقامة شخص ليجلس أحد مكانه، فعن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لا يقيم الرجلُ الرجلَ من مجلسه فيجلس فيه، ولكن تفسحوا وتوسعوا.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: لم يكن من عادة السلف على عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين، أن يعتادوا القيام، كما يفعله، كثير من الناس، ... وربما قاموا للقادم من مغيبه تلقيا له، كما روي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قام لعكرمة، وقال للأنصار لما قدم سعد بن معاذ: قوموا إلى سيدكم، والذي ينبغي للناس، أن يعتادوا اتباع السلف على ما كانوا عليه على عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم. فإنهم خير القرون وخير الكلام كلام الله، وخير الهدى هدي محمد، فلا يعدل أحد عن هدي خير الخلق، وهدي خير القرون، إلى ما هو دونه. وينبغي للمُطَاع أن يقرر ذلك مع أصحابه، بحيث إذا رأوه لم يقوموا له، ولا يقوم لهم، إلا في اللقاء المعتاد، فأما القيام لمن يقدم من سفر ونحو ذلك، تلقيا له، فحسن، وإذا كان من عادة الناس إكرام الجائي بالقيام، ولو تُرِكَ ذلك لاعتقد أن ذلك بَخْسٌ في حقه، ولم يعلم العادة الموافقة للسنة، فالأصلح أن يقام له، لأن ذلك إصلاحٌ لذاتِ البين، وإزالةٌ للتباغضِ والشحناءِ، وأما من عرف عادة القوم الموافقة للسنة، فليس في ترك ذلك إيذاء له.

وليس هذا القيام هو القيام المذكور في قوله صلى الله عليه وسلم: من سره أن يتمثل له الناس قياما فليتبوأ مقعده من النار. فإن ذلك أن يقوموا وهو قاعد. ليس هو أن يقوموا لمجيئه إذا جاء. ولهذا فرقوا بين أن يقال (قمت إليه) و(قمت له). والقائم للقادم ساواه في القيام، بخلاف القيام للقاعد، وجماع ذلك أن الذي يصلح، اتباع عادة السلف وأخلاقهم، والاجتهاد بحسب الإمكان. فمن لم يعتد ذلك، أو لم يعرف أنه العادة، وكان في ترك معاملته بما اعتاده الناس من الاحترام مفسدة راجحة، فإنه يدفع أعظم الفسادين بالتزام أدناهما، كما يجب فعل أعظم الصلاحين بتفويت أدناهما.

وقال قتادة: (**وَإِذا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا**) أي إذا دعيتم إلى خير فأجيبوا.

وقال مقاتل: إذا دعيتم إلى الصلاة فارتفعوا بها.

الثالث: قال قوم معنى (**يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ**) يرفع الله المؤمنين منكم العلماء درجات على غيرهم، فلذلك أمر بالتفسّح من أجلهم، ففيه دليل على رفع العلماء في المجالس، والتفسّح لهم عن المجالس الرفيعة.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَـٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٢﴾

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا ناجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقَةً**) أي تصدقوا قبل مسارته في بعض شأنكم (**ذلِكَ**) أي التقديم، (**خَيْرٌ لَكُمْ**) أي لأنفسكم، لما فيه من مضاعفة الأجر والثواب، والقيام بحق الإخاء، بالعود على ذوي بالمسكنة بالمواساة والإغناء، (**وَأَطْهَرُ**) أي لأنفسكم من رزيلة البخل والشح، ومن حب المال وإيثاره الذي قد يكون من شعار المنافقين، وكأن الأمر بالتصديق المذكور،

نزل ليتميز المؤمن من المنافق، فإن المؤمن تسخو نفسه بالإيمان كيفما كان، والمنافق يغصّ به، ولو في أضرّ الأوقات. ومعظم أوامر السورة هو التصدق، حثّا للباخلين، وسوقا للمؤمنين، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا أي ما تتصدقون به أمام مناجاتكم الرسول صلى الله عليه وسلم (**فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**) أي لمن لم يجده، إذ لم يحرجه ولم يضيّق عليه، رحمة منه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾

(**أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقاتٍ**) أي أخفتم، من تقديم الصدقات، الفاقة والفقر؟ توبيخ بأن مثله لا ينبغي أن يشفق منه، للزوم الخلف للإنفاق، لزوم الظل للشاخص. بوعد الله الصدق. (**فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا**) أي ما ندبتم إليه من تقديم الصدقة، وشقّ عليكم، (**وَتابَ اللّهُ عَلَيْكُمْ**) بأن رخّص لكم أن لا تفعلوا، رفعا للحرج حسبما أشفقتم، (**فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَأَطِيعُوا اللّهَ وَرَسُولَهُ**) أي فلا تفرطوا في الصلاة والزكاة وسائر الطاعات، فإن ذلك يكسبكم ملكة الخير والفضيلة، (**واللّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ**) أي فيجزيكم بحسبه.

تنبيه:

إن المنافقين كانوا يمتنعون من بذل الصدقات، وأن قوما من المنافقين تركوا النفاق، وآمنوا ظاهرا وباطنا إيمانا حقيقيا، فأراد الله تعالى أن يميزهم عن المنافقين، فأمر بتقديم الصدقة على النجوى، ليتميز هؤلاء الذين آمنوا إيمانا حقيقيّا عمن بقي على نفاقه الأصليّ.

والظاهر أن الأمر بتقديم الصدقات بين يدي مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم أنها للندب، ويدل على ذلك أمور:

الأول: أنه قال: (**ذلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ**) وهذا إنما يستعمل في التطوع لا في الفرض.

الثاني: قوله: (**فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتابَ اللهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ**) ... إلخ معناه إن لم تفعلوا ما ندبتم إليه من تقديم الصدقات قبل مناجاة الرسول، والحال أن الله قد رجع إليكم بالتخفيف والتسهيل فيما شرعه لكم، فلم يعاملكم كما كان يعامل الأمم السابقة ولم يعنتكم بشيء مما أوجبه عليكم، فلذا ندبكم إلى هذا الأمر، ولم يجعله عليكم فرضا، كما هي سنته في معاملتكم بالرأفة والرحمة، فأقيموا الصلاة ... إلخ. فقوله (**وَتابَ اللهُ عَلَيْكُمْ**) قد ورد هنا بمعنى الرجوع إلى التخفيف والتسهيل على هذه الأمة، والعدول عن معاملتها كسابقيها، لا بمعنى التجاوز عن السيئات وغفران الذنوب، وقد ورد ذلك المعنى في سورة المزمل في قوله تعالى: (**عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتابَ عَلَيْكُمْ**) [المزمل: ٢٠]، أي رجع إليكم بالتخفيف، ورفع عنكم ما يشق عليكم. وليس معناه في هاتين الآيتين العفو عن الذنوب، إذ لا ذنب هنا صدر منهم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ ۞ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مَّا هُم مِّنكُمۡ وَلَا مِنۡهُمۡ وَيَحۡلِفُونَ عَلَى ٱلۡكَذِبِ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤ ﴾

(**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ**) يعني المنافقين الذين كانوا يتولّون اليهود ويناصحونهم وينقلون إليهم أسرار المؤمنين، كما بينته آية (**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ**) ... [الحشر: ١١] الآية. (**ما هُمْ مِنْكُمْ**) أي من أهل دينكم وملتكم، معشر المسلمين (**وَلا مِنْهُمْ**) أي من اليهود كقوله تعالى:

(مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذلِكَ لا إِلى هؤُلاءِ وَلا إِلى هؤُلاءِ) [النساء: ١٤٣]، **(وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ)** وذلك قولهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم **(نشهد إنك رسول الله)** وهم كاذبون غير مصدقين به. وَهُمْ يَعْلَمُونَ أي المحلوف عليه كذب بحت.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًاۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝١٥ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝١٦﴾

(أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذاباً شَدِيداً إِنَّهُمْ ساءَ ما **كانُوا يَعْمَلُونَ اتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً)** أي وقاية وعصمة لأنفسهم **(فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ)** أي فحالوا بأيمانهم عن حكم الله في أمثالهم، وهو القتل، إراحة للمؤمنين من فسادهم. أو فصدّوا الناس في خلال أمنهم وسلامتهم عن الإيمان وثبوطهم عنه. **(فَلَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ أي مذلّ لهم في الآخرة).**

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١٧ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ۝١٨ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝١٩﴾

(لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً) أي من عذابه شيئا ما، كما كانوا يفتدون بذلك في الدنيا **(أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَما يَحْلِفُونَ لَكُمْ)** أي في الدنيا كاذبين مبطلين، إشارة إلى مرونهم على النفاق، ورسوخهم فيه، حتى لدى من لا تخفى عليه خافية. **(وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلى شَيْءٍ)**

أي من النفع أو من الحق (**أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكاذِبُونَ**) أي فيما يحلفون عليه في الدارين (**اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطانُ**) أي استولى عليهم حتى صار الكذب والفساد ملكة لهم (**فَأَنْساهُمْ ذِكْرَ اللهِ**) أي بتسويل اللذات الحسية، والشهوات البدنية لهم، وتزيين الدنيا وزبرجها في أعينهم، (**أُولئِكَ حِزْبُ الشَّيْطانِ**) أي أتباعه في الفساد والإفساد. (**أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطانِ هُمُ الْخاسِرُونَ**) أي للسعادة في الدارين.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ٢٠﴾ لأن الغلبة لله ولرسوله. كما قال:

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ٢١﴾

(**كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي**) أي حزبَ الشيطان المحادّين (**إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ**) أي قويّ على إهلاك من حادّه ورسله، عزيز فلا يغلب في قضائه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٢٢﴾

(**لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ**) أي شاقّهما وخالف أمرهما، أي لا تجد قوما جامعين بين الإيمان بالله واليوم الآخر، وبين موادّة أعداء الله ورسوله، والمراد بنفي الوجدان نفي الموادّة، على معنى أنه لا ينبغي أن يتحقق

ذلك، وحقه أن يمتنع ولا يوجد بحال، مبالغة في النهي عنه، والزجر عن ملابسته، والتوصية بالتصلب في مجانبة أعداء الله ومباعدتهم، والاحتراس من مخالطتهم ومعاشرتهم، وزاد ذلك تأكيدا وتشديدا بقوله: **(وَلَوْ كانُوا آباءَهُمْ)** أي آباء الموادّين والضمير في **(كانُوا)** لمن حاد الله ورسوله. **(أَوْ أَبْناءَهُمْ أَوْ إِخْوانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ)** أي فإن قضية الإيمان هجر المحادين **(أُولئِكَ)** إشارة إلى الذين لا يوادّونهم **(كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمانَ)** أي أثبته فيها **(وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ)** أي بنور وعلم ولطف حَيَتْ به قلوبهم في الدنيا. وأشار إلى ما لهم في الآخرة، بقوله **(وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)** أي الناجحون الفائزون بسعادة الدارين.

تنبيهات:

الأول: في قوله تعالى: **(رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ)** سر بديع وهو أنه لما سخطوا على القرائب والعشائر في الله تعالى، عوضهم الله بالرضا عنهم، وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم، والفوز العظيم، والفضل العميم.

الثاني: يفهم من قوله تعالى **(حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ)** وقوله في آية أخرى **(لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِياءَ)** [الممتحنة: ١] المراد بهم المحاربون لله ولرسوله، الصادّون عن سبيله، المجاهرون بالعداوة والبغضاء، وهم الذين أخبر عنهم قبل بأنهم يتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول. فتشمل الآية المشركين وأهل الكتاب المحاربين المحادّين لنا، أي الذين على حدّ منا، ومجانبة لشئوننا، تحقيقا لمخالفتنا، وترصدا للإيقاع بنا. وأما أهل الذمة الذين بين أظهرنا، ممن رضي بأداء الجزية لنا وسالمنا، واستكان لأحكامنا وقضائنا، فأولئك لا تشملهم الآية، لأنهم ليسوا بمحادّين لنا بالمعنى الذي ذكرناه، ولذا كان لهم ما لنا، وعليهم ما علينا، وجاز التزوج منهم، ومشاركتهم، والاتجار معهم،

وعيادة مرضاهم. فقد عاد النبي صلى الله عليه وسلم يهوديّا، وعرض عليه الإسلام فأسلم، وعلى الإمام حفظهم والمنع من أذاهم، واستنقاذ أسراهم، لأنه جرت عليهم أحكام الإسلام، وتأبد عهدهم، فلزمه ذلك، كما لزم المسلمين.

والأصل في هذا قوله تعالى ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الممتحنة:٩]، فالموالاة المحرمة ، هي أن تحب الكافر لكفره، والعاصي لمعصيته، لا لسبب آخر، من جلب نفع أو دفع ضرر، أو خصلة خير فيه.